لمحة عن الاتصالات بين الصين والبلدان العربية في عهد أسرة مينغ الملكية

يانغلو لي (Yang-lu Li)

مقدمة

سعى هذا البحث المتواضع إلى دراسة العلاقة الصينية العربية منذ أسرة تانغ الملكية في القرن السابع ميلاديا بصورة عامة وتطورها في الأسرة مينغ الملكية في القرن الرابع عشر ميلاديا بصورة خاصة، وذلك لتحقيق الأهداف الآتية وهي: أولا اكتشاف أبرز الدلائل حول تأثر الحضارتين العريقتين بعضهما بالآخر قبل عهد أسرة مينغ الملكية؛ ثانيا تحليل المبادلات الصينية العربية في مجالات التكنولوجيا والتعليم والثقافة والسياسة والاقتصاد عصرئذ؛ ثالثا مقارنة العلاقة الصينية العربية في عهد أسرة مينغ الملكية مع تلك في العهود السابقة؛ رابعا البحث عن إمكانية الاستفادة من دراسة تاريخ الاتصالات بين الطرفين الصيني العربي في ظل العولمة اليوم. اعتمد هذا البحث على المنهج التحليلي الوصفي، بحيث عرض البحث أهم القضايا في العلاقة الصينية العربية القديمة كقضية نشر الإسلام واللغة العربية في الصين وموقف الحكومة المركزية تجاهه وغيرها، ثم شرح تلك القضايا بتحليل النصوص المعنية بها وتعليل أسباب ظهورها وتطورها وبيان مدى التأثر والتأثير، فليس أنسب إلى ذلك من الاستضاءة بشيء من المنهج المقارن كذلك. لعل من النتائج الهامة التي انتهى البحث إليها أن الاتصالات بين الجانبين قد تعود منذ عهد أسرة شانغ الملكية في القرن الثاني عشر قبل الميلاد؛ والاتصالات الحكومية بالبلدان العربية ضعفت إلى حد ما في عهد أسرة مينغ الملكية، وإن كانت الحكومة المركزية أرسلت وفدا رسميا كبيرا لزيارة بعض المناطق العربية، والشعب الصيني والعربي والحكومات المركزية كانت أكثر اهتماما بالمبادلات التجارية والعلاقة الدبلومسية في العصور السابقة. ما قدم البحث من أبرز التوصيات أن تعزيز الصداقة بين الصين والدول العربية رغبتنا الواحدة وذلك يحتاج إلى الانفتاح والتعاون العميقين والثقة المتبادلة والعمل الجدي على جميع المستويات حكوميا وشعبيا. والصين مستعدة للعمل مع الدول العربية في كافة المجالات كحركة الترجمة والتعليم وغيرهما لتوطيد هذه العلاقة التاريخية في ظل العصر الجديد.

١- جذور العلاقة الصينية العربية

على مقتضى كتاب ((تحديد البحر الأحمر))، قد تعود التبادلات الودية بين الصين والبلدان العربية إلى أسرة شانغ الملكية (Shang) (سنة ١٠٤٦ - ١٦٠٠ق.م) على الأقل. ويبدو أن كاتبة هذا الكتاب قد وجدت عدة براهين. مثلا في آثار أسرة شانغ الملكية وأطلالها في مقاطعة خه نان (He Nan)، تم اكتشاف أكثر من ٦٨٠٠ قوقعة عربية في ضريح الملكة فو هاو (Fu Hao) (الولادة والوفاة غير معروفتين) – زوجة الملك وو دينغ (Wu Ding) (توفي في سنة ١١٩٢ق.م) في أسرة شانغ الملكية، وكذلك اكتشفت كثير من الأصداف البحرية التابعة لخليج عدن في آثار النجوم الثلاثة في مقاطعة سي تشوانغ (Si Chuan). ١ استحال أن تطير هذه الأصداف أوالقواقع إلى الصين عبر البحور والجبال إلا بجناح، واحتمل أن يحمل الذين كانوا يعيشون في المناطق المجاورة لليمن إلى الصين.

تعززت الاتصالات بين الصين والبلدان العربية في أسرة تانغ الملكية (Tang) (سنة ٦١٨ - ٩٠٧م). أرسل ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان رضي الله عنه (سنة ٦٤٤ - ٦٥٦م على العرش) وفدا رسميا إلى الصين في السنة الثانية من حكم الإمبراطور لي تشي (Li Zhi) (سنة ٦٥١م) في أسرة تانغ الملكية. ٢ ووصل إلى الصين الوفد المكون من خمسة وعشرون فردا من التازيان الأسود (الأسرة العباسية) (سنة ٧٥٠ – ١٢٥٨م) في السنة

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

الثانية وعشرة من حكم الإمبراطور لي لونغ جي (Li Longji). ٣ وأوفدت البلدان العربية تسعا وثلاثين بعثة ما بين السنة الثالثة من حكم الإمبراطور يه ليوي يي (Ye lueyi) (سنة ٩٢٤م) في عهد أسرة لياو (Liao) الملكية والسنة الثالثة من حكم الإمبراطور تشاو كوه (Zhao Kuo) (سنة ١٢٠٧م) في عهد أسرة سونغ الجنوبية الملكية (Nan Song). واحتشد في بعض المدن تجار وطلاب وصناع ورجال الدين وغيرهم من الفرس والعرب، حيث لقوا احتراما وتبجيلا من حكومة سونغ. ٤ يزاد على ذلك توجد عدد كبير من تعريفات الصين وموصوفاتها في المؤلفات المتنوعة للعلماء العرب كذلك. على سبيل المثال، كتب المؤرخ العراقي المسعودي (توفي في سنة ٩٥٦م) في مؤلفه ((مروج الذهب ومعادن الجوهر)): خانقوا مدينة عظيمة على نهر عظيم أكبر من دجلة يصب إلى بحر الصين، وبين هذه المدينة وبين البحر مسيرة ستة أيام أو سبعة، تدخل هذا النهر سفن التجار الواردة من بلاد البصرة وسيراف وعمان ومدن الهند وجزائر الزابج والصنف وغيرها من الممالك بالأمتعة والجهاز، وتقرب إلى مدينة خانقوا. وكتب الرحالة المغربي إبن بطوطة (سنة ١٣٠٤ - ١٣٧٧م) في مؤلفه ((رحلة ابن بطوطة)): وإقليم الصين متسع، كثير الخيرات والفواكه والزرع والذهب والفضة، لا يضاهيه في ذلك إقليم من أقاليم الأرض.

في عهد أسرة مينغ الملكية (سنة ١٣٦٨ - ١٦٤٤م)، شرعت الحكومة المركزية تنفذ سياسة تحريم التجارة البحرية مع البلدان الأجنبية على المستوى الشعبي والتي كانت تنفذ في عهد أسرة يوان الملكية (Yuan) أيضا، ١ ولكن العلاقة بين الصين والبلدان العربية في أثناء هذا العهد شهدت التنمية الكبرى والتمازج الكبير في مجالات التكنولوجيا والتعليم والثقافة والسياسة والاقتصاد وغيرها.

٢- تطور علم الفلك

في القرون الوسطى، اعتبر علم الفلك العربي متقدما نسبيا في مشرق العالم ومغربه.كان العرب يساهمون في مجال الفلك مساهمة جليلة لا يمكن طمسها من الحضارات العالمية. على سبيل المثال، صحح العرب نموذج مركز الأرض لكلاوديوس بطليموس (Claudius Ptolemaeus) (١٦٨ - ٩٠م)، ولخصوا تجارب السابقين ونتائج أبحاثهم وأعمالهم حيث أكدوا بالبراهين أن الأرض لا تقع في مركز الكون. بالإضافة إلى ذلك، كان للأسطرلاب وجهاز المواقع والكرة الجغرافية والمزولة الشمسية وغيرها التي أبدعها العرب تأثيرا واسعا على علم الفلك الصيني والهندي.

جاءت القوميات المسلمة الصينية بعلم الفلك من الذين أمنوا بدين الإسلام في وسطى وغربي آسيا. وقد اهتمت حكومة مينغ المركزية (Ming) (سنة ١٣٦٨ - ١٦٤٤م) بعلم الفلك للقوميات المسلمة إلى حد كبير. في العام الأول من حكم الإمبراطور تشو يوان تشانغ (Zhu Yuanzhang) (١٣٦٨م) ، استدعت الحكومة المركزية علماء الفلك المسلمين من المرصد الفلكي السابق لأسرة يوان الملكية (سنة ١٢٠٦ - ١٣٧٨م) إلى عاصمة البلاد نان جين (Nan Jing) من جراء نقاش كيفية صناعة التقويم الجديد ومنهم هي دي أ (Hei dier) وآ دو تشي (A Duci) وديه لي يوي شي (Die Liyueshi) وتشن آ شينغ (Zhen Axing)، فبدأ معظمهم بعد ذلك يعمل في المرصد الفلكي لأسرة مينغ الملكية. ٢ نظرا لأن الكتب القديمة عن التقويم مؤلفة باللغة العربية، طلب الإمبراطور تشو يوان تسنغ (سنة ١٣٦٨-١٣٩٩م على العرش) من هؤلاء علماء الفلك المجيدين هذه اللغة أن يترجموا هذه الكتب إلى اللغة الصينية وقد أعار هذا المشروع اهتماما كبيرا. ومن بينهم عالم الفلك المسلم ما دار الدين (Ma Deluding) (توفي في سنة ١٣٧٤م) وأبناؤه الثلاثة الذين بذلوا قصاوى جهدهم لإكمال هذه المهمة.

طبقا لطومار ((مقر العالم الفلكي الكبير ما)) (Da Ce Tang Ma) وكتاب ((شجرة عائلة ما لمقر جيوي تشن تانغ)) (Ju Zhen Tang Ma Shi Zong Pu)، الجد الأول في هذه الشجرة ما دار الدين واسمه الأصلي دار الدين، وهو العالم الفلكي والرياضي المسلم من مدينة جدة للمملكة العربية السعودية حاليا. أولاده هم ما شيخ (Ma Shayihei) (الولادة والوفاة غير معروفتين)، وما حما (Ma hama) (الولادة والوفاة غير معروفتين)، وما حسن (Ma hasang) (الولادة والوفاة غير معروفتين). وصل إلى محافظة جيانغ نينغ (Jang Ning) لمقاطعة جيانغسو (Jang Su) مع أولاده في العام الثاني من حكم الإمبراطور تشو يوان تشانغ (١٣٦٩م). ١ كان ما دار الدين ماهرا في العلوم الفلكية، فأشاد الإمبراطور تشو يوان تشانغ (سنة ١٤٦٨ - ١٤٩٩م

على العرش) بعبقريته حتى منحه اسم العائلة لزوجته ما (Ma) باعتباره أسمى أيات الشرف من كل أنواع المكافآت في تلك الأيام، ثم اشترك مع أولاده في ترجمة الكتب الفلكية وصناعة التقويم الجديد. تم ما حما ترجمة الكتب الفلكية لعالم فلكي فارسي، استعرضت مؤلفاته المترجمة مصطلحات فلكية مثل النجوم والبروج، كما شرحت أيضا مفاهيم القدر الظاهري وخط الطول لمسيرة الشمس وخط العرض لمسيرة الشمس. حسب ما ورد في الجذء السابع من ((التقويم)) من ((تاريخ أسرة مينغ الملكية))، أمرت الحكومة المركزية لي تشونغ (Li Chong) ووو بوء تسونغ (Wu Bozong) عضوي الأكاديمية الملكية بمساعدة كبار العلماء ما شيخ في أعمال الترجمة. استفاد ما شيخ من ثمار الإنجازات الفلكية الجديدة والبحوث الفكلية القديمة والمؤلفات الفلكية العربية المعممة في الصين، وأخيرا تكللت أعماله بنجاح كبير، بحيث تم تأليف كتاب ((نظام تقويم هوي هوي لي فا)) (Hui Hui Li Fa) أو ((نظام تقويم المسلمين))، والذي يشتمل على أربعة أقسام: والقسم الأول هو التقويم الشمسي، والثاني التقويم القمري، والثالث حساب مسيرة النجوم الخمسة والشمس والقمر في مداراتها، والرابع تنبؤات لموعد كسوف الشمس وخسوف القمر. يعتبر القسمين الأخيرين ذوي شأن كبير في المحفل الفلكي على إثر أنهما من أعلى المنجزات الفلكية المحققة في الصين في ذلك العصر. ٢ حل كتاب ((تقويم المسلمين)) محل كتاب ((التقويم الأبدي)) الذي ألفه جمال الدين (Ji Maleding) (الولادة والوفاة غير معروفتين) العالم الفلكي في أسرة يوان الملكية في العام الرابع من حكم الإمبراطور قبلاي خان (Hu Bilie) (١٢٦٧م)، واستمر استخدامه في بعض المساجد الصينية حتى الآن.

٣- ازدهار علم الطب

وصل علم الطب العربي إلى بداية النضج في الفترة ما بين القرن ال٨ والقرن ال١٠ تقريبا. في المدونات الصينية التاريخية عديد من المصنفات المتعلقة بالأدوية العربية التي انتشرت في الصين، مثل البلسم الموجود في الرواية القصيرة ((يو يانغ تسا تسو)) (You Yang Za Zu) في عهد أسرة تانغ الملكية (Tang)، والمر في الكتاب الطبي ((هاي ياو بن تساو)) (Hai Yao Ben Cao) في عهد الممالك الخمسة (Wu Dai)، والذعفران في الكتاب ((تاريخ أسرة سونغ الملكية)) في عهد أسرة سونغ الشمالية الملكية (Bei Song)، والصندل في كلا الكتابين الجغرافيين ((تشو فان تشي)) (Zhu Fan Zhi) و((لينغ واي داي دا)) (Ling Wai Dai Da) في عهد أسرة سونغ الجنوبية الملكية (Nan Song)، والداتورا في كتاب التاريخ ((قوي شين تسا شي)) (Gui Xin Za Shi) في عهد أسرة سونغ الجنوبية الملكية، والحلبة في الكتاب الطبي ((ين شان تشنغ ياو)) (Yin Shan Zheng Yao) في عهد أسرة يوان الملكية وعلى نحوه.

عهد أسرة مينغ الملكية هو عهد لصيننة علم الطب العربي في البيئة الصينية، فاندمج في علم الطب الصيني تدريجيا بضل جهود قدامى الصينيين. وطفق الإمبراطور تشو يوان تشانغ يأمر مترجمين بترجمة الكتب لأسرة يوان. ومن الكتب المستولدة من حركة الترجمة كتاب ((وصفات طبية لهوي هوي)) (Hui Hui Yao Fang) أو ((وصفات طبية للمسلمين))، وهو الكتاب المثالي الجامع بين عمل الطب الصيني العربي. مؤلف الكتاب وتاريخ تأليفه مجهولان، وهو مكتوب باللغة الصينية. وكان له في الأصل ٣٦ جزءا، ولكن بقي ٤ أجزاء فقط اليوم، وله حوالي ٤٥٠ صفحة، تقرب من٢٠٠ ألف مقطع صيني، والتي حفظت في مكتبة بكين (Bei Jing). ١ أما أجزاؤه الباقية، فتشتمل على: الجزء ال١٢ وال٣٠ وال٣٤ والقسم ال٢ من جزء الفهرس. يمكن القول إن هذا الكتاب هو دائرة معارف تتناول القسم البطني والجراحي وقسم أمراض النساء وقسم العظام وقسم الأمراض الجلدية وقسم أمراض الأعصاب وتعرف القراء بالصيدلية العربية وأسماء الأعشاب بأعداد كثيرة، مثلا: كافور وعنبر وصمغ وجلوز وإكليل المالك وأشنة وأفيون وعرطنيشا وأرنب بحري وجرارة وسورنجان وإلى آخره. غالبا ما نجد أسماء الأمراض والأدوية المترجمة إلى اللغة الصينية صوتيا في كتاب ((وصفات طبية المسلمين))، لذا لا نقدر على فهم تفاصيلها أو خصائص الدواء بصورة دقيقة إلا إذا رجعنا إلى الأصل العربي أو الفارسي. بعد أن قام العلماء المتخصصون بالقياس بين الأجزاء الباقية لهذا الكتاب وكتاب ((القانون في الطب)) لإبن سنا (٩٨٠ - ١٠٣٧م) في السنوات الأخيرة، يظنون ظنا أن معظم النصوص الواردة في الكتاب الأول تشبه

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

ما وردت في الكتاب الثاني، إذ أن لكتاب ((وصفات طبية للمسلمين)) والجزء الخامس من كتاب ((القانون في الطب)) أكثر من ١١٧ وصفة مشتركة، فإما كانت نصوص الكتاب الأول مأخوذة من تلك في الكتاب الثاني، وإما قد تكون لكلاهما نفس المصادر أو المراجع. وهذا الأمر قد يدل على أن كثيرا من الكتب الطبية التقليدية المشهورة في أواسط القرون الوسطى - مثل كتاب ((القانون في الطب)) لإبن سنا (٩٨٠ - ١٠٣٧م) وكتاب ((حاوي في الطب)) للرازي (٨٦٥ - ٩٢٥م) وكتاب ((كامل الصناعة الطبية الضرورية)) لإبن المجوسي (توفي في سنة ١٠٠٩م) - لم تكن فقط مشهورة في أروبا، بل أيضا انتشرت إلى مشرق الدنيا على الأرجح، فقد لعبت دورا حاسما في دفع عجلة التنمية لعلم الطب الصيني إلى الأمام.

٤- ارتقاء المستوى المعماري

يحتل الفن المعماري المتمثل في تصميم المسجد مكانة عليا في البلدان العربية. عندما جاء العرب والقوميات المسلمة إلى الصين، أدخلوا فنا معماريا إسلاميا إلى هذه الأرض السحرية وعلموا الذين أمنوا بالإسلام هذا الفن، فتطور هذا الفن في الصين جيل بعد جيل. في عهد أسرة مينغ الملكية، قد تحولت الطرز المعمارية التقليدية لبناء المسجد في معظم مناطق الصين إلى طرز معمارية مميزة ذات الخصائص الصينية على أيدي قومية هوي المسلمة (Hui) عصرئذ، فلا غرو أن يشبه شكل تلك المساجد الجديدة شكل الدار الرباعية والمعبد الصيني. إلا أن بعض المساجد في منطقة شين جيانغ الويغورية الذاتية الحكم (Xin Jang) احتفظت بالملامح والسمات العربية التقليدية. ١ أما معظم المساجد لدى قومية هوي المسلمة، فلها بابان كبيران، وجدار حاجز مزخرف بالنقوش بين المدخل الرئيسي وفناء الدار، وقاعتان جنوبية وشمالية لتعليم الإسلام، وغرف وضوء وغسل، وبرج لشهادة الهلال، ومئذنة، وقاعة كبرى وغير ذلك من مبان ذات الميزات المعمارية الصينية التقليدية. أما بعض المساجد الأخرى، فلها دار خاصة لإمام المسجد وأهله، وهي تقع عموما بجانبها أو في فنائها الخلفي. حسب ما ذكرنا سلفا، ظهرت التغييرات في السمات المعمارية لبناء المسجد لتسد المتطلبات الواقعية للمسلمين الصينيين في حياتهم، بالتالي نقدم لكم بعض النماذج من المساجد التي تم بناؤها في عهد أسرة مينغ الملكية.

يقع جامع هوا جيويه (Hua Jue) في مدينة شي آن (Xi An)، مقاطعة شان شي (Shan Xi). إسمه الأصلي جامع التوعية، وأيضا يحمل اسم الجامع الشرقي العظيم. وهو الأكبر من نوعه حجما في هذه المدينة، كما يعتبر من أكبر المساجد الأربعة في الصين. وسمي بهذا الإسم لوقوعه في زقاق هوا جيويه قريبا من برج الطبل بالمدينة. أما تاريخ بنائه، فليس واضحا. وفقا للمكتوبات المنقوشة على الأنصاب الحجرية في الجامع والسجلات الإدارية للحكومة المحلية، نظن ظنا أنه بني خلال حكم الإمبراطور تشو يوان تشانغ على الأرجح، وأعيد بناؤه وترميمه في السنة الثانية من حكم الإمبراطور تشو جيان شن (Zhu Jianshen) (١٤٦٦م). ١ بني جامع هوا جيويه على شكل مستطيل، وتتوزع فيه توزعا متناسقا قاعة الصلاة والقاعة الكبرى وغيرهما من ١٤ مبنى، وتبلغ مساحته البنائية ٤٠٠٠ متر مربع. ويضاهي المسجد قصرا للإمبراطور الصيني، ويتميز بضخامة بنائه وروعة هندسته، فيبدو أنه خليط بين الفن المعماري الزخري الإسلامي ونظيره التقليدي الصيني. نظرا لأن فيه مزيدا من الآثار التاريخية، قد أدرج في قائمة أهم الآثار المحمية على المستوى الوطني، فجذب آلاف الزوار القادمين من جميع أنحاء العالم لزيارته كل سنة.

يقع مسجد دونغ سي (Dong Si) في مدينة بكين، عاصمة الصين. سمي أيضا مسجد فا مينغ (Fa Ming)، وهو من أكبر وأقدم المساجد وأفضلها بناءا في مدينة بكين. بدأ بناؤه في السنة العشرين من حكم الإمبراطور تشو تشي تشن (Zhu Qizheng) (١٤٤٧م)، وتبلغ مساحته البنائية ١٠٠٠٠متر مربع. يقع مسجد عيد كاه (Ai Ti Ga) في مدينة كاشغر (Ka Shi) في غربي منطقة شين جيانغ الويغورية الذاتية الحكم. بدأ بناؤه في العام السابع من حكم الإمبراطور تشو تشي تشن (Zhu Qizhen) (١٤٤٢م)، ويشغل مساحة قدرها ١٦٨٠٠ متر مربع تقريبا، فهو أكبر المساجد مساحة في منطقة شين جيانغ الويغورية الذاتية الحكم ومن أكبر المساجد حجما في أنحاء البلاد. يقع المسجد الشمالي في بلدة تشو شيان تشن (Zhu Xian Zhen) في مدينة كاي فنغ (Kai Feng) بمقاطعة خه نان (He Nan)، بدأ بناؤه في السنة العاشرة من حكم الإمبراطور تشو هو تسونغ (Zhu Houchong) (١٥٣١م)، ويشغل

مساحة قدرها ٩٣٣٣ مترا مربعا تقريبا. يقع الجامع الشرقي في مدينة جي نينغ (Ji Ning) بمقاطعة شان دونغ (Shan Dong)، عرف باسم شون خه (Shun He) إذ أنه يقع على ضفة القناة الكبرى وهو في محاذاة القناة، وبدأ بناؤه في أثناء حكم الإمبراطور تشو يوان تشانغ (Zhu Yuanzhang)، وتغطي مساحته البنائية ٤١٣٤ مترا مربعا.

٥- أثر الإسلام في الصين

انتشر دين الإسلام في الصين منذ عهد أسرة تانغ الملكية (Tang) عن طريق العطور البحري وطريق الحرير البري. إن تأسس الحكومة المركزية في عهد أسرة مينغ الملكية (Ming) وضع حدا الحروب الطاحنة بين أمراء الحرب، الأمر الذي يهيئ بيئة إجتماعية آمنة لانتشار دين الإسلام في الصين، وفي ظل الاستقرار كان عدد الذين يؤمنون بدين الإسلام يزيد زيادة متعاظمة أيضا. خلال حكم الإمبراطور تشو يوان تشانغ (Zhu Yuanzhang) بدأت قوميات هوي هوي (Hui Hui) أو القوميات المسلمة الصينية تنتقل من المناطق الغربية إلى المناطق الجنوبية والشرقية. وبعد حكم الإمبراطور تشو دي (Zhu Di) والإمبراطور تشو قاو تشي (Zhu Gaochi) والإمبراطور تشو تشان جي (Zhu Zhanji) والإمبراطور تشو تشي تشن (Zhu Qizhen) والإمبراطور تشو تشي يوي (Zhu Qiyu) والإمبراطور تشو جيان شن (Zhu Jianshen) والإمبراطور تشو يو تانغ (Zhu Youtang) والإمبرطور تشو هو تشاو (Zhu Houzhao)، أي من السنة ١٣٦٨م إلى السنة ١٥٢١م، بلغت حركة انتقال السكان المسلمين حدا لم يشهد له مثيلا من قبل. ويمكن رؤية تأثير انتشار دين الإسلام من جوانب عدة، أولا وقبل كل شيء قد عزز انتشار الإسلام نفسيات قومية شتركة بين القوميات المسلمة الصينية، وكان هذا الأمر إيذانا بتشكيل قوميات مسلمة صينية نهائيا. فضلا عن ذلك، قد عجل انتشاره أيضا تطور الفلسفة الإسلامية وأفكار الإسلام والعلوم الدينية واللغة العربية والفارسية وغيرها في الصين، فشاع استخدام اللغتين في أوساط المسلمين الصينيين حينذاك. ولاحت في ذلك الزمان حركة ترجمة كبرى في المجال العلمي، بحيث قام بعض العلماء بترجمة الكتب الإسلامية الكلاسيكية إلى اللغة الصينية، كما قام البعض الآخر بتأليف الكتب الإسلامية الجديدة باللغة الصينية بدلا من اللغة العربية. استشهد بعض العلماء المسلمين الصينيين بأقوال موجودة في أمهات الكتب الصينية للمذهب الكونفوشي أو البوذي أو الطاوي وغيرها في أثناء ترجمة الكتب الإسلامية الكلاسيكية، والتي قد تحتوي أفكارا وآراءا تماثل الإسلام. بعبارة أخرى استنار بها هؤلاء العلماء لتسهيل فهم الإسلام، فألقوا الضوء على بعض الموضوعات المعنية بالدين، ولكن شروحها ما زالت في حدود الإسلام. على سبيل المثال، كان العالم المسلم وانغ داي يوي (Wang Daiyu) (سنة ١٥٨٤ - ١٦٧٠م) في عهد أسرة مينغ الملكية شرح مفهوم التوحيد باستخدام الفكرة الكونفوشية في كتابه ((تشنغ جياو تشن تشيوان)) (Zheng Jiao Zhen Quan) أو ((الشرح الصحيح لدين الإسلام))، وأيضا كان العالم الإسلامي ما تشو (Ma Zhu) (سنة ١٦٤٠ - ١٧١١م) في عهد أسرة مينغ الجنوبية الملكية شرح قدر الله وقضائه باستخدم الفكرة الكونفوشية والفكرة الطاوية في كتابه ((تشينغ تشن تشي نان)) (Qing Zhen Zhi Nan) أو ((دليل دين الإسلام)). يزاد على ذلك أن انتشار الإسلام في الصين قد دفع تقدم الأداب والفنون الإسلامية في الصين، وكان كثير من الأدباء والكتاب المسلمين الصينيين ذوي شهرة واسعة في ذلك العصر مثل الشاعر الماهر يانغ ينغ كوي (Yang Yingkui) (سنة ١٤٦٨ - ١٥٤٢م) وكاتب النثر الباهر سون جي لو (Sun Jilu) (توفي في سنة ١٥٤٧م) وعالم التاريخ لي تشي (Li Zhi) (سنة ١٥٢٧ - ١٦٠٢م) والرسام المتفوق دينغ شي (Ding Xi) (الولادة والوفاة غير معروفتين) وإلى أخره، وهم اتغذوا من المعارف والعلوم السابقة وتركوا أعمالهم المبدعة الرائعة، فبقت آثارهم حتى اليوم.

٦- شيوع التعليم في المساجد

مع توسع صفوف المسلمين الصينيين، انبثق منه النظام الجديد للتعليم والتربية بصورة غير رسمية، يعني نظام التعليم والتربية في المساجد. كان أول الذي أوجد هذا النظام هو خو دنغ تشو (Hu Dengzhou) (سنة ١٥٩٢ - ١٥٢٢م)، وهو مكنى بمينغ بو. ١ ولد خو في مدينة وي نان (Wei Nan) بمقاطعة شان شي (Shan Xi). بعد أن رجع من الحج، عقد عزمه على إنشاء النظام الجديد في المساجد لتعليم العلوم الدينية وإعداد أئمة المسلمين الصينيين. وحدد شروطا لقبول

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

الطلاب في المسجد، وامتحنهم بنفسه، كما اشترك في تعليم العلوم الإسلامية بعد تأسس نظام التعليم والتربية في المساجد. أما مشكلة النفقات اليومية خلال الدراسة، فكان المسلمون الصينيون يحلونه عن طريق التمويل، بحيث بذلوا جهدهم في تمويل الطلاب الذين درسوا في مسجد حيهم. ٢ وإذا أنهى دفعة من الطلاب دراساتهم، تكسوا جبة اعترافا بأهلية الخريج. شرع نظام التعليم والتربية في المساجد يوسع نطاقه إلى مقاطعة خه نان (He Nan) وشان دونغ (Shan Dong) ويوين نان (Yun Nan) وقان سو (Gan Su) وبكين (Bei Jing) ونينغ شيا (Ning Xia) وغير ذلك من مواطن المسلمين في أنحاء البلاد. انقسم نظام التعليم والتربية في المساجد إلى ثلاثة مراحل وهي المدرسة الابتدائية والمدرسة الإعدادية والمدرسة العليا. وكان التعليم في المدرسة الابتدائية غالبا يركز على الحروف العربية والمفردات العربية، كما ركز على تدريس العلوم الإسلامية في هذه المرحلة. وفي المدرسة الإعدادية درس الطلاب علم الكلام وعلم الفقه ومبادئ أخلاقية عموما. وأما في المدرسة العليا، فغالبا ما درسوا اللغة العربية واللغة الفارسية وقواعدها وعلم البلاغ والبيان والقرآن الكريم والحديث الشريف والعلم المنطقي وعلم الشريعة. واشتملت الكتب المستخدمة في نظام التعليم والتربية على أنواع عدة وهي: ((صرف)) و((معزى)) و((زنجاني)) و((عوامل)) و((مصباح)) و((ضوء المصباح)) و((ملاجامي)) و((بيان)) و((شرح الوقاية)) و((جلالين)) و((تفسير القاضي)) و((العقائد النفسية)) و((خطب)) و((أربعون)) و((كلستان)) وما إلى ذلك. مع تطور نظام التعليم والتربية في المساجد في الصين خلال عهد أسرة مينغ المكلية، ظهرت لغة مسماة بجينغ تانغ لغة فريدة في عمليات التعليم، وما استخدمت هي إلا في المساجد أو المدرسة الدينية، فبدأت هذه اللغة بتعميم في هذا العصر كذلك. للغة جينغ تانغ ثلاثة مصادر وهي: اللغة العربية واللغة الفارسية واللغة الصينية. على سبيل المثال بعض مفرداتها مقتبسة من اللغة العربية أو بعبارة أدق هي مفردات مترجمة صوتيا، وذلك مثل الله (رب العالمين)، والإيمان (العقيدة)، والمسلم (المؤمن بدين الإسلام)، والعلماء (المتعلون) وإلخ. وبعض كلماتها الأخرى مقتسبة من اللغة الفارسية مثل دست (الصديق)، وبامداد (صلاة الفجر)، ودوشمان (العدو)، وهدى (رب العالين) وإلخ. بالإضافة إلى ذلك لا تخلو لغة جينغتانغ من المفردات المركبة من الكلمات العربية والفارسية مثل بيه نصيب (غير محظوظ). نحن على ثقة راسخة بأن ازدهار نظام التعليم والتربية في المساجد في عهد أسرة مينغ الملكية ساعد على إعداد الأكفاء المسلمين بكمية هائلة وتحفيز تقدم الثقافات العربية الإسلامية في الصين إلى حد أقصى، فهذا العصر عصر العلم بالنسبة إلى المسلمين الصينيين.

٧- الاتصالات الرسمية مع البلدان الأخرى

بعد تأسس أسرة مينغ الملكية (Ming)، كلف الإمبراطور تشو دي (Zhu DI) (سنة ١٤٠٣ - ١٤٢٤م على العرش) كبار القواد المسلمين تشنغ خه (Zheng He) (سنة ١٣٧١ - ١٤٣٣م) خلال حكمه بست رحلات رسميا، وكلفه الإمبراطور تشو تشان جي (Zhu Zhanji) (سنة ١٤٢٦ - ١٤٣٥م على العرش) خلال حكمه برحلة واحدة رسميا. ترأس تشنغ خه أساطيله الضخمة التي تكونت من أكثر من مائتي ألف شخص، فبدأ بسبع رحلات بحرية، بحيث قام بزيارة رسمية لبعض البلدان الواقعة في جنوب آسيا وشرقها والبلدان حول المحيط الهندي. في أول رحلته جمع تشنغ خه حوالي مائتي ألف وسبعة آلاف شخص وبعضهم ركبوا ٦٢ سفينة كبيرة وبعضهم الآخر ركبوا ٢٥٥ سفينة صغيرة. أبعد الأماكن التي وصلها في الرحلات الثلاث الأولى هي الهند، ووصل مضيق هرمز والخليج الفارسي في رحلته الرابعة، ووصل سواحل شرق افريقيا في رحلاته الثلاث الأخيرة. كانت رحلته الأولى أسبق من اكتشاف كريستوفر كولومبوس (Christopher Columbus) (سنة ١٤٥١ - ١٥٠٦م) للقارة الأمريكية بـ ٨٧ سنة وأسبق من اكتشاف فاسكو دا جاما (Vasco da Gama) (سنة ١٤٦٠ - ١٥٢٤م) لطريق رأس الرجاء الصالح بـ ٩٣ سنة وأسبق من وصول فرديناندو ماجلان (Ferdinand Magellan) (سنة ١٤٨٠ - ١٥٢١م) إلى الفليبين بـ ١١٦ سنة. حملت أساطيل تشنغ خه كثيرا من الذهب والفضة والأحجار الكريمة واللؤلؤ والخزف والمنتجات الصينية المحلية وغيرها. عندما وصلت أساطيله إلى مكان ما، قدمت هذه الهدايا إلى سكان محليين تعبيرا عن رغبة الحكومة المركزية في إقامة العلاقة الودية معهم. إن رحلاته

السبع ليست لتنمية التفاهم المتبادل وتعزيز العلاقة الودية والتبادل الثقافي بين الشعب الصيني وشعوب البلدان الآسيوية والإفريقية ولا سيما شعب البلدان العربية فحسب، بل لترويج الحضارات الصينية إلى أمصار العالم والحفاظ على السلام في بعض البلدان كذلك، إضافة إلى تقديم المساهمات الهائلة في تنمية أعمال البحرية البشرية. ١ لذلك له فضل عظيم في تاريخ الملاحة البحرية العالمية.

٨- حركة التجارة الشعبية النشيطة

شهدت الصين حركة تجارة شعبية نشيطة في داخل الصين خلال أسرة مينغ الملكية، وكان التجار المسلمون الصينيون الذين عاشوا في ذلك العصر قد وسعوا نطاق تجارتهم إلى القرى والمدن الصغيرة في المناطق النائية. في مقاطعة يون نان (Yun Nan)، ظهرت قوافل تجارية معتمدة على الخيول (Ma Bang)، وكان لقوافل المسلمين المحليين ستة طرق مختصة بتجارتهم. وفي مقاطعة قان سو (Gan Su) بشمال غربي الصين، عاش مزيد من كبار التجار المسلمين، منهم شباس (Sha Basi) (الولادة والوفاة غير معروفتين) وما الدين (Ma Dinger) (الولادة والوفاة غير معروفتين). أما أنواع البضائع الرائجة في السوق، فبعضها انتمت إلى الصناعة التقليدية، مثل التجارة باليشبات والجواهر والعطور والعقاقير، وبعضها الأخر انتمت إلى الصناعة الجديدة، مثل المنتجات الزراعية والحيوانية ومشتقاتها والمنتجات الفنية واليدوية وصناعة الطعام الإسلامي. من المنتجات الزراعية والحيوانية ومشتقاتها لحوم البقر والخراف والحبوب والقطن والسكر والشاي والملح وغيرها. وفقا للسجلات المعنية، كان كثير من التجار المسلمين يفتحون مطاعم إسلامية في أماكن مختلفة مثل نيو جيه (Niu Jie) (شارع البقر) ويانغ شي جيه (Yang Shijie) (سوق الخروف) في بكين (Bei Jing) ويانغ با تو (Yang Batou) (سد الخروف) في مدينة هانغ تشو (Hang Zhou) وغيرها. سميت هذه الأماكن بتلك الأسماء المعنية بالبقر أو الخروف بسبب أن المسلمين تجمعوا هناك وذبحوا حيوانات واتجروا بأطعمة إسلامية طبقا للشريعة الإسلامية. كانت التجارة الشعبية عبر طريق العطور البحري قد بلغت درجة من الانكماش في أسرة مينغ الملكية بسبب انتهاج الحكومة المركزية سياسة تحريم التجارة البحرية مع البلدان الأخرى لأجل المحافظة على أمن الوطن. بعد رفع هذه السياسة، بدأت التجارة الشعبية تزدهر مرة أخرى، ونقلت البضائع المتنوعة إلى البلدان العربية عبر هذا الطريق. فضلا عن ذلك أن طريق الحرير البري له تأثير عميق في التاريخ الصيني كذلك. كانت حكومة مينغ المركزية تهتم بتطور المنطقة الغربية وإدارتها على خير وجه. بسبب الحروب الطاحنة التي حدثت في نهاية أسرة يوان الملكية وبداية أسرة مينغ الملكية بين المناطق في داخل الصين والمناطق الواقعة في شمال وجنوب جبل تيان شان (Tian Shan) والبلدان الواقعة في غرب ووسط آسيا، انقطعت لمدة قصيرة الاتصالات التجارية البرية التقليدية بينها. ولكن بعد استقرار حكومة مينغ تجددت هذه الاتصالات مرة أخرى في هذه المناطق. دائما ما احتفظت الحكومة المركزية بالعلاقات التجارية المتوثقة مع بعض البلدان الرئيسية كما هو مبين في ما يلي: ها مي (Ha Mi) وتوربان (Tu Lufan) وبيه شي با لي (Bie Shibali) ويي لي با لي (Yi Libali) في المنطقة الغربية، وليو تشنغ (Liu cheng) وهوه تشو (Huo Zhou) بجانب جبل تيان شان، ويوي تيان (Yu Tian) وها شي ها أر (Ha Shihaer) في جنوبي منطقة شين جيانغ (Xing Jiang)، وسمرقند في وسطى آسيا وبعض المناطق الواقعة في غربي آسيا وغيرها. ١ أما البضائع المتجر بها، فتشتمل على الخيول والحرائر والشاي وجلد السمور واليقوت والجمال وما إلى ذلك.

خاتمة

لعل تلك القواقع العربية هي أبرز الدلائل التي تدل على العلاقة الصينية العربية في التاريخ الطويل. لقد سبق لعدد من الوفود العربية أن تزور الصين من عهد أسرة هان الملكية (Han) إلى ما قبل أسرة المينغ الملكية سواء عبر طريق الحرير البري أو البحري، بحيث بدأ بعض العرب والفرس يعيشون في الصين، ويختلطون مع المحليين، فانتشرت الدين واللغة والحضارة في الصين. وكانت الحكومات الصينية القديمة في أسر تانغ سونغ الملكية أكثر اهتماما بهذه العلاقة الودية بين الجانبين، فازدهرت التجارة والعلوم والثقافات وغيرها في الصين. أما في أسرة مينغ الملكية، فقد تتأثر هذه العلاقة تأثرا سلبيا بسبب سياسة تحريم

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

التجارة البحرية. ولكن ما زال الشعبان يتبادلان بالتعاون والتضامن، فلا غرو أن نجد نوعا من التطور في مجالات عدة ولا سيما في التعليم الديني والإبداع العلمي وحركة الترجمة. في العصر الحديث، يواجه الشعب الصيني والشعب العربي مصيرا متشابها، ويؤيد بعضهما بعضا لمكافحة الإمبريالية والاستعمار في سبيل تحقيق استقلال الوطن وتحريره. في القرن الماضي شرعت الدول العربية واحدا بعد واحد تقيم علاقات دبلوماسية مع جمهورية الصين الشعبية. هذا من الناحية، ومن الناحية الأخرى فقد بادلت الصين الدول العربية بالتأييد والتضامن في قضايا عدة وخاصة فيما يتعلق بنزاع الشرق الأوسط. في عام ٢٠٠٣م، أعلن الأمين العام لجامعة الدول العربية عمور موسى التوصل إلى اتفاق على إنشاء منتدى للتعاون بين الدول العربية والصين في القاهرة، مما وسع فرصا متاحة لتعزيز التعاون المشترك بينهما في كافة المجالات كالتعليم وحركة الترجمة، وقدم جدمات جليلة لتنمية المجتمع البشري. إن تطوير الصداقة الودية بين الصين والدولية العربية رغبتنا الواحدة والشعب الصيني مستعد للعمل مع الشعب العربي يدا بيد لتحفيز هذه الشراكة المتينة في ظل العولمة.

المصادر:

١. 白寿彝，《中国伊斯兰文化史存稿》，宁夏人民出版社，١٩٨٣年。
٢. 陈炎，《海上丝绸之路与中外文化交流》，北京大学出版社，١٩٩٦年。
٣. 丁明仁，《伊斯兰文化在中国》，宗教文化出版社，٢٠٠٣年。
٤. 李明伟，《丝绸之路贸易史研究》，甘肃人民出版社，١٩٩١年。
٥. 纳麒，《传统与现代的整合》，云南大学出版社，٢٠٠١年。
٦. 邱树森，《中国回族史》，宁夏：宁夏人民出版社，١٩٩٦年。
٧. 苏三，《锁定红海》，新世界出版社，٢٠٠٥年。
٨. 《中华书局》编辑部和国务院宗教事务局宗教研究中心，《中国的伊斯兰文化》，١٩٩٦年。
٩. 王小东，《中国古建筑文化之旅》，知识产权出版社，٢٠٠٣年。
١٠. 许嘉璐，《明史》，上海：汉语大词典出版社，٢٠٠٤年。
١١. 许嘉璐，《宋史》，上海：汉语大词典出版社，٢٠٠٤年。
١٢. 许嘉璐，《新唐书》，上海：汉语大词典出版社，٢٠٠٤年。
١٣. 许嘉璐，《元史》，上海：汉语大词典出版社，٢٠٠٤年。
١٤. 余桂元，《中国著名的寺庙宫观与教堂》，商务印书馆，١٩٩٦年。
١٥. 周勋初，《册府元龟》，南京：凤凰出版社，٢٠٠٧年。

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

الهوامش

١- سوسان، تحديد البحر الأحمر: العلاقات المشبوهة بين أسر شيا وشانغ وتشو الملكية ومناطق البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط، بكين: دار النشر الجديد، ٢٠٠٥م، ص ٨.

٢- شو جيالو، التاريخ الجديد لأسرة تانغ الملكية، شانغهاي: دار النشر لمعجم اللغة الصينية، ٢٠٠٤م، ص ٤٨٠٣.

٣- تشو شيون تشو، الشواهد التاريخية، نانجينغ: دار العنقاء للنشر، ٢٠٠٧م، ص ١١٢٨٢.

٤- ناتشي، الجامع بين الحداثة والتقاليد، يونّان: دار النشر لجامعة كون مينغ، ٢٠٠١م، ص ٢٠.

٥- شو جيالو، تاريخ أسرة يوان الملكية، شانغهاي: دار النشر لمعجم اللغة الصينية، ٢٠٠٤م، ص ١٨٩٢.

٦- انظر إلى وظائف المرصد الفلكي لأسرة مينغ الملكية. شو جيالو، تاريخ أسرة مينغ الملكية، شانغهاي: دار النشر لمعجم اللغة الصينية، ٢٠٠٤م، ص ١٤٢١.

٧- تشيو شو شين، تاريخ القوميات المسلمة الصينية، نينغشيا: دار النشر الشعبي لنينغشيا، ١٩٩٦م، ص ٥٠٧.

٨- إدارة التحرير للعلوم الفنية والتاريخية ومركز الدراسات الدينية، الحضارة الإسلامية الصينية، بكين: دار النشر الصيني، ١٩٩٦م ص ٨٨-٩٠.

٩- دينغ مينغرن، الحضارة الإسلامية في الصين، بكين: دار النشر للثقافة الدينية، ٢٠٠٣م، ص ٤١.

١٠- وانغ شياودنوغ، ثقافة العمارات الصينية القديمة، بكين: مؤسسة الملكية الفكرية للنشر، ٢٠٠٣م، ص ١٢.

١١- يو غويوان، أشهر المعابد والمساجد والكنائس في الصين، بكين: المؤسسة التجارية للنشر، ١٩٩٦م، ص ١٤٨-١٤٩.

١٢- تشيو شو شين، تاريخ القوميات المسلمة الصينية، نينغشيا: دار النشر الشعبي لنينغشيا، ١٩٩٦م، ص ٥١٨.

١٣- مخطوطة تاريخ الإسلام الصيني، نينغشيا: دار النشر الشعبي لنيغشيا، ١٩٨٣م، ص ٣٦٦.

١٤- تشنيان العلاقات الخارجية وطريق الحرير البحري، بكين: دار النشر لجامعة بكين، ١٩٩٦م، ص ١٥٧-١٥٨.

١٥- لي مينغوي، تاريخ التجارة على طول طريق الحرير البري، لانتشو: دار النشر الشعبي لمقاطعة قانسو، ١٩٩٧، ص ٥٨٥.

ISBN: 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2